الفصل السادس

الحياة الحب ، والحب الحياة !

ليس من الميسور تحقيق السعادة الإنسانية بدون الحب ، وأى حياة تخلو من الحب – حياة فارغة جوفاء ، فإن لم تأخذ صورة الحب للإنسان ، فينبغى أن تأخذ صورة الحب للحيوانات أو الأشياء غير الحية كالكتب أو المجوهرات أو الصور أو التحف أو السيارات أو الزهور أو طوابع البريد أو المال . ونحن جميعاً نعرف من الرجال والنساء من قد أصابهم حب الجمع والاقتناء ، وهؤلاء قد يبيعون أنفسهم فى سبيل الحصول على نسخة نادرة من الطبعة الأولى لكتاب أو قطعة شهيرة من الجواهر . وبعض هؤلاء يمضى بهم جنون الجمع والاقتناء إلى غايته القصوى حتى يثير سلوكهم الفزع أو السخرية . ولكن على الرغم من أن سلوكهم قد يدفعنا أحياناً إلى الضحك منهم يجب أن نعرف أنهم يبحثون عن الحب بطريقتهم الخاصة ، وقد يبين التحليل النفسى أنهم فى الأرجح عاجزون انفعاليًّا عن حب شخص آخر ، أو أنهم فى فترة ما من حياتهم قد أصيبوا بالإحباط فى هذا الحب . أما الحقيقة الباقية فهى أنه مهما يكن من شأن الصورة التى تبدو أمامنا فإن الحب عنصر جوهرى ولا يمكن الغناء عنه للحياة الإنسانية . وإذا أصبح إنسان فى حالة لا مبالاة كلية لجميع الأشخاص وجميع الأشياء فإنه يكون قد أصبح فى حالة لا مبالاة تامة للحياة نفسها ، والخطوة الحتمية بعد ذلك هى الموت . بل إن بعض هؤلاء الأفراد التعسين قد يتخلصون من حياتهم أحياناً ، هل تعرفين هذه الكلمات الجميلة لبورديلون :

العقل له آلاف الأعين ، والقلب له عين واحدة
ومع ذلك فإن ضوء الحياة كلها يختفى حين يختفى الحب !

وإذا قيس الحب بمقياس السعادة الإنسانية فإن أسمى أنواع الحب وأعمقها إشباعاً هو حب الإنسان لإنسان آخر ؛ فقد يحب المرء الكتب أو الرسم أو الزهور إلى درجة تصرفه تماماً

عن أى شىء آخر ، ولكنها جميعاً لا يمكنها أن تبادله ذلك الحب . أما الحب والولاء اللذان نغدقهما على إنسان آخر فيمكن أن يعادا إلينا لا بصورة غريزية وحسب ، ولكن بذكاء وتفهم أيضاً .

ويضاف إلى ذلك ، وهذا أمر فى غاية الأهمية – أن الحب الإنسانى أى حب إنسان لآخر حب خلاق ، أما حب الجماد ، أو حب المرء لما يملك فإنه حب خامد غير متحرك لا ينمو ولا ينتج . فالذى يهوى جمع الأشياء قد يرغب فى امتلاك كتاب أو (لوحة) ما بكل قلبه وروحه ، وبعد أن يتم حصوله على ما يرغب وتخبو نشوة امتلاكه فإنه قد يبدأ يرغب فى الحصول على شىء ثمين آخر ؛ ليضيفه إلى مجموعته ، ولكن رغبته هذه لن تدفعه إلى تحقيق إنجازات عظيمة ولن تزوده بدافع أو تنبهه إلى السعى من أجل الحصول على أشياء كبيرة من شأنها أن تجعل إنساناً آخر يحبه سعيداً ومبتهجاً .

فالمثل القديم الذى يقول عن الحب : إنه هو الذى يحرك العالم يكاد يكون صحيحاً بالحرف الواحد ، فإن إشباع الذات لدينا هو يقيناً المحرك لكل ما نعمل ، ومع ذلك فإن تحقيق أحلامنا وطموحنا يصبح غير ذى معنى ما لم يشاركنا فيه إنسان نحبه . فالنجاح الذى لا يشاركنا فيه أحد ليس نجاحاً على الإطلاق . فأى غبطة حقيقية يشعر بها إنسان أنجز بنجاح مشروعاً أو كتب مسرحية مكتسحة أو كسب قضية هامة إذا لم يكن بوسعه أن ينقل ذلك إلى إنسان يهمه الأمر ؟

ولكن حب إنسان لآخر لا يمنع بأى حال احتمال حب أشياء أخرى : كالصور والزهور والكتب والموسيقى والمجوهرات والحيوان . بل إن الأمر على العكس من ذلك : فكلما زادت قدرة الإنسان على الشعور القوى بالمودة العميقة تجاه الناس زادت قدرته على أن يشعر بالحب لكل شىء آخر تقريباً ، وكلما زاد حبه أصبحت حياته كلها أكثر غنى أو سعادة : فالحب يتغذى على الحب . وبجرد عملية الحب تزيد من قدرة الإنسان على الحب وتغذيها وتعمقها .

وهناك خطأ شائع هو أنه إذا كانت للإنسان علاقة حب فإن هذه العلاقة تلقائياً تجعل من المستحيل عليه أن يدخل فى علاقة أخرى بالقوة نفسها ، وهذا بكل بساطة غير صحيح ؛ فإن الحب كالبئر التى لا قرار لها ، كلما تعمقت فيها زاد ما تجده من ماء ، وكلما أحببت زادت

قدرتك على الحب ، لا تحديد للحب بالبطاقات هنا ، فإن القلب المحب لا يتوقف عن الخفقان أبداً .

وعلى العكس للاعتقاد الشائع فإن الوقوع فى الحب أثر الصد فى حب آخر كثيرا ما يكون مجزياً ؛ لأن الصد يشعل القدرة على الحب لدى المحب المنبوذ وينبهها ، فيصبح هو أو تصبح هى على توق شديد لإغداق الحب والولاء : فإذا كانت لدى الشخص الذى يوجه إليه مثل هذا الحب القدرة على تبادله بكل أبعاده فإن النتائج سوف تكون مرضية تماماً ، ولكن الخطر الأكبر بطبيعة الحال فى مثل هذه الظروف أن الإنسان الذى لقى الصد فى إحدى هذه العلاقات قد يندفع فى لحظة إحباط ويأس إلى الارتباط الأعمى بأول شخص يلقاه بعد ذلك دون أن يعنى بالتحقق من وجود أى توافق بينهما . وهذا هو السبب الحقيقى فى النهايات الحزينة التى تنتهى إليها كثير من الزيجات أو علاقات الحب التى تعقب الصد فى علاقات أخرى ؛ لأنها أساساً لم تكن لتنجح فى أى وقت وتحت أى ظرف . وسبب الفشل فيها ليس أن أحد طرفى العلاقة الجديدة كان مصدوماً فى علاقة سابقة ولكنه أساساً لأنهما لم يكونا ليصلح أحدهما للآخر من بادئ الأمر . ومن ناحية أخرى فإنه إذا كان كل من الطرفين فى العلاقة الجديدة يكمل بعضهما فإن فرص النجاح الدائم لها تصبح كبيرة .

وفيما يلى حالة توضح ما أعنى : وقعت صديقه لإحدى بناتى وهى فى الثالثة والعشرين من العمر وتدعى مرجريت مالنسن فى حب محام ناجح اسمه هوارد واجز . وبعد أن تقابلا كثيراً وعلى مدى عدة شهور تمت خطبتهما . وقد وافقت الأسرتان وباركتا بحماس الزواج الذى كان يبدو فى الظاهر زواجاً كاملاً لأقصى حد ، وهو قد كان فعلاً ، ولكن إلى نقطة معينة .

والمثل القديم الذى يقول — « إنك لا يمكن أن تعرف إنساناً إلا إذا عاشرته » — يمكن تغييره بسهولة لكى يصبح : « إنك لا يمكن أن تعرف إنساناً إلا إذا أحببته » . ومن ثم فإن مرجريت وهوارد حين بدآ يخططان للمستقبل فقد بدآ فى الوقت نفسه يكتشفان أشياء جديدة كل واحد عن الآخر : كان هوارد شديد التصميم جداً عنيداً متحكماً ومتمسكاً دائماً بتنفيذ رأيه فى كل شىء ، وكانت مرجريت تقول له : « إنك أفضل عميل لنفسك ! » ولكنها من ناحيتها كانت أيضاً قوية الذهن ذات عزم ، فرفضت أن تدع نفسها تخضع له كلية بالرغم من أنها كانت أكثر منه استعداداً للتوفيق وقبول (التنازلات) ، ونتيجة لهذا الاحتكاك فى المزاج فقد

كانا دائمى الشجار ، وظلت خطبتهما تتأرجح بين الاستمرار والانقطاع عدة مرات ، ولكن كان عند مرجريت فى النهاية من قوة الخلق ما جعلها تنسى كبرياءها مؤقتاً ، وتفصم علاقتها ، وتنسى كل شىء عن هوارد .

ومرت شهور عدة وكانت شهوراً من الوحدة والتعس بالنسبة لمرجريت ، لأنه ما إن تعرفى معنى الحب حتى تجدى أنه من العسير أن تمضى فى حياتك بدونه . وفى ذات ليلة قابلت فى إحدى الحفلات شاباً صحفياً يرأس تحرير إحدى المجلات اسمه تد بانيستر . وكأن تد قد اكتوى بالنار التى اكتوت مرجريت بها نفسها كما عرفتُ فيما بعد . ووجدا أنهما قد انجذبا ، كل واحد للآخر ولكن دون وله شديد ، بل إن ما بينهما كان أقرب إلى الصداقة العميقة والتفهم ، وحين عرفا أن كلاً منهما قد مر بمحنة مشابهة ازدادت الروابط بينهما توثقاً . وتدريجاً ومع الوقت تحولت الصداقة المحبة بينهما إلى حب ودود ثم إلى ولاء وتفان عنيف . وبعد أكثر من مرور عام على هذه العلاقة غير الرسمية تمت خطبتهما وأخيراً تزوجا ، وكان زواجهما ناجحاً ومثمراً .

وهذه الحالة توضح أن الناس الذين فشلوا فى علاقة حب يمكنهم أن يدخلوا فى علاقة حب باق ما دام فى وسعهم أن يتركوا قلوبهم مفتوحة . كما أنها توضح كذلك حقيقة أخرى هامة ، وهى أن فترة الخطبة يمكن أن تساعد على تحقيق غرض هام بإتاحة الفرصة للخطيبين للتعرف أحدهما على الآخر تعرفاً دقيقاً قبل الزواج بدلاً من بعده ، حين لا يزال يكون هناك وقت لتدارك الأمر .

وهناك ، بطبيعة الحال ، من يقولون : إن الحب ليس مهماً وإنه عقبة أكثر من عون ؛ كما أن هناك من النساء والرجال من ينحُّونه جانباً ويرفضون السماح له باعتراض حياتهم ، وهؤلاء فى أغلب الأحيان متبلدون عاطفياً أو منحرفون عقلياً ، أو أن الأمر معهم ، كما يحدث كثيراً لا يعدو الحصرم مع الثعلب فى القصة المعروفة . إن الحياة بدون الحب حياة فارغة خالية من المعنى والهدف .

ومن لحظة مجيئنا إلى هذا العالم فإن وجودنا كفاح مستمر من أجل البقاء ، وبعضنا ينجح فى ذلك وبعضنا يفشل فشلاً ذريعاً ، وأغلبنا ناجح جزئياً فقط . ولكن مهما يكن من الفشل الذى يلقاه المرء فإنه مادام يجد عند رجوعه إلى المنزل إنساناً يحبه ويرعاه ، إنساناً يضمد جراح

روحه فإنه لن يشعر بأن حياته كانت ضياعاً كاملاً ؛ فليس هناك بلسم أو دواء شاف كالحنان والعزاء والمودة من إنسان محب !

فإذا ما حظى المرء بهذه النعمة فإن ذهابه إلى الفراش ليلاً يصبح النهاية والذروة والهناء الذى يتوج ما حققه فى يومه كله ، بل إنه يصبح فى الواقع طقساً مقدساً : أى أنه بدلاً من أن يكون مجرد المظهر الحيوانى لوظائف بدنية طبيعية فإنه يصبح التعبير الجسدى عن انفعالات جميلة واتحاد روحى . وليس معنى هذا أنه ينبغى أن يأخذ صورة اللقاء الجنسى الفعلى لكى يتزود المرء منه بالإشباع والرضا والسرور العميق الباقى ؛ فإنه أحياناً ما يجد إنسانان السعادة من مجرد وجودهما بعضهما بين ذراعى بعض ! بل إن هذا اللقاء العاطفى يجوز أن يكون فى واقع الأمر أكثر أهمية من اللقاء الجنسى ! وكثيرٌ من الأزواج يرتكبون خطأ التقارب الجسدى بغرض الاتصال الجنسى فقط . وهذا أمر جميل إذا كان الاثنان يرغبان ذلك ، ولكن فى كثير من الأحيان لا يشعر أى منهما بالمزاج أو الاستعداد الجسمى لذلك ، وفى هذه الحالة يمكنهما الاستمتاع بلذة لا حد لها من مجرد العناق والرشف والملاطفة فقط .

والواقع أن مفتاح العلاقة كلها ليس فى الجنس مثلما هو فى المودة والحب . وقد يخبر المرء أشد اللقاء الجنسى إثارة دون أن يستمد منه إشباعاً حقيقيًّا باقياً ما لم يكن فى الوقت نفسه مقروناً بالحب . ومن جهة أخرى يمكن الإنسان أن يشعر بسعادة لا حدود لها من مجرد وجوده فى الغرفة نفسها مع إنسان يبادله الحب . وهذا لا يعنى أن الحب الجنسى قليل الأهمية . على العكس من ذلك ، فمن أية زاوية نظرنا إليه رأينا أنه يكوّن جانباً حيويًّا من الحياة الإنسانية ، وكما يقول المثل القديم «الجنس موجود ليبقى» . وكل ما يعنيه ذلك أنه فى العلاقة القائمة على الحب الحقيقى ، كما فى الزواج ، يؤدى الجنس دوراً هامًّا ولكنه ليس غالباً . فهو يكوّن جزءاً مكملاً وجوهريًّا فى نسيج الزواج فيجعله أكثر ثراء وقوة وأزهى لوناً ، ولكنه إلى ذلك كله ليس الخيط الوحيد . والعزب «رجل العلاقات المتعددة» حين يتصل بفتاة تكون رغبته الأساس والفريدة عادة هى الاتصال الجنسى بها ، وقد يستمتع للدقائق قصيرة قبل اللقاء الجنسى وفى أثنائه وبعده مباشرة بأقصى درجات اللذة والنشوة التى يمكن أن يعرفها الرجل . ولكنه استمتاع قصير الأجل عابر وغير باق ، فبمجرد انتهائه يشعر الطرفان من الوجهة الانفعالية والروحية ، وكذا أيضاً من الوجهة الجسدية بالنفاد والفراغ ، ويظل هذا الشعور بالفراغ مستمرًّا حتى

المناسبة التالية للقاء. أما فى حالة الزوجين المؤتلفين تماماً فإنهما سيشعران بسلام عميق ورضاً بعد اللقاء الجنسى ، فالنشوة الجنسية لن تكون النقطة الأخيرة ، ولكنها تصبح بمثابة إنجاز ونوع من التجميع والتحقيق المجيد لأعمق عواطفها كلها ، وهذا هو الفارق الحاسم بين الحياة الزوجية والعزوبية ، فالحياة فى الأولى هى الجنس والحب وهى فى الأخيرة الجنس فقط .

بل إن المحتمل أيضاً أن يحب اثنان من الناس بعضهما بعضاً حبًّا عميقاً ، ومع ذلك يمكنهما لاحتفاظ فى بعض الأحيان بعلاقة تخلو من الجنس نسبيًّا . ومما فى هذه الحالة يمكنهما أن يستمتعا بمصاحبة أحدهما الآخر وأن يسعدا من مجرد وجودهما معاً وحسب ، يتناقشان فيما بينهما من اهتمامات مشتركة ، ويذهبان معاً للمسارح أو الحفلات الموسيقية أو معارض الفن أو المباريات الرياضية أى أنه يمكنهما أن يرتبطا معاً بدون أن يكون هناك بينهما دافع جنسى معين :

كان دكتور جورج لسنر فى الثانية والخمسين من عمره ، على حين كانت دكتورة جوليت هوفمان فى التاسعة والثلاثين . وكانا قد عملا معاً فى العيادة نفسها : هو كجراح عام وهى كطبيبة أمراض باطنية ، وقد جمعهما العمل معاً لسنوات عدة ، هذا إلى ما كان يجمع بينهما أيضاً من اهتمامات مشتركة لا فى الطب وحسب ، ولكن فى الموسيقى والأدب والرياضة أيضاً ، ثم يضاف إلى ذلك ما كان يشعر به أحدهما نحو الآخر من احترام عميق وإعجاب ومودة كطبيبين وكفردين من الناس على حد سواء . وكان يبدو أنهما متآلفان على نحو مثالى ، وكثيراً ما كنا نتساءل : لم لم يتزوجا ؟ والسبب كما عرف فيما بعد – هو أن الدافع الجنسى عند جورج كان ضعيفاً على حين كانت جوليت طبيعية فى هذه الناحية ، وأخيراً وبرغم ذلك – فقد اتفقا على الزواج . وقد كانت جوليت تدرك أنها لابد أن تضحى بشىء ما دام أنه لن يستطيع إشباعها جنسيًّا ، ولكنها قررت أن الأمر يستحق النزول عن بعض اللذة الجسدية مقابل الاستمتاع بمصاحبة الرجل الذى كانت تعجب به وتحبه بعمق . وقد كان مجرد احتوائها بين ذراعيه ليلاً يمدها بشعور رائع جميل ويملؤها بأعمق الرضا . ثم نجح زواجهما فى النهاية نجاحاً كاملاً .

ولكن مجرد كون اثنين من الناس يخبران الحب الجنسى بأنه أقل أهمية فى واقع الأمر ، فإن قوانيننا وعاداتنا وتقاليدنا وآدابنا وتراثنا الشعبى كلها تولى العملية الجنسية المجردة أهمية أكبر ولا تعطى اهتماماً كافياً بما ترمز إليه ، وهو حب إنسان لآخر . إن العملية نفسها من الاتصال

الجسدى والنشوة الجنسية ليست إلا نوعاً من الوظائف البدنية . والواقع أنه ليست هناك أهمية أكبر للصورة التى تتم بها ، فإن المحرمات الدينية والعادات الاجتماعية والقوانين الوضعية قدست وأباحت بعض الأوضاع وحرمت بعضها الآخر ، ولكن كثيراً مما توصف بأنها ألوان شاذة من التعبير الجنسى تجد القبول فى جهات متعددة من العالم .

وإذا فكرنا من الناحية الطبية فإن اللقاء الجنسى من وجهة نظر الطبيعة هو اللقاء الجنسى ، ولا تهم كثيراً الطريقة التى يمارس بها ، وصحيح أن الانغماس فى بعض هذه الممارسات قد يؤدى إلى مضاعفات عقلية وانفعالية مختلفة . ولكن السبب الوحيد فى ذلك هو المحرمات المصطنعة التى أحيطت بها جهلاً من الإنسان بنفسه ، فمثلاً : كثير من المصابين بالجنسية المثلية[1] يتعرضون لانهيارات نفسية نتيجة لما يثيره الشعور بالذنب لديهم من خوف . ومع ذلك فإذا كانت قوانيننا تحاول مطابقة الطبيعة بدلاً من محاولة مطابقة الطبيعة للقوانين ، كما اقترح د . كنزى ، ما وجب أن يكون هناك عقاب أو عار من هذا اللون من الشعور والتعبير الجنسى ، وما ظل ذوو الجنسية المثلية فى حالة تصدع ذهنى نتيجة قلقهم بخصوص سوء توافقهم الجنسى .

وأنا قد أثرت هذه النقطة لا لأنى أقف موقف المؤيد أو المعارض للجنسية المثلية ، أو لأية حالة من تلك التى تعد شذوذاً ، ولكنى أود وحسب أن أقرر أن ما يهم فعلاً فى أية علاقة بين اثنين من الناس ليس مجرد احتمال أنه يفعل الجنس أو كيف يحدث ؟ ولكنه الحب والتفانى الذى يصاحبه كاملاً وبدون حدود . هذا هو الأمر المهم غاية الأهمية . وفى التحليل النهائى فإن الحياة الحب والحب الحياة ، فليس هناك حب بدون حياة ، وليس هناك حياة بدون حب !

---

(١) الجنسية المثلية هى اتجاه الدافع الجنسى إلى أفراد من الجنس نفسه ، وقد تكون الجنسية المثلية كامنة دون أى تعبير واضح عنها ، أو قد تكون ظاهرة وتدفع صاحبها إلى إقامة علاقة جنسية مع فرد أو أفراد من جنسه نفسه . والاتجاه الآن الى رفع الوصمة الخلقية عن الجنسية المثلية أو اعتبارها حالة مرضية تقتضى العلاج (المشرف) .